المحاضرة الخامسة: الفلسفة الماركسية

احتلت الفلسفة الماركسية مكانة هامة في تاريخ الفكر والفلسفة، وعرفت انتشارا واسعا في العالم باعتبارها فلسفة نقدية واقعية جاءت لنفي ورفض الفلسفات المثالية، فهي تنطلق في تحليلاتها من الواقع ليس من اجل تفسيره وانما بهدف تغييره، هذا ويرجع مفهوم الماركسية الى اسم مؤسسها وصاحب الاسهام الاكبر فيها وهو الفيلسوف الالماني كارل ماركس، فقد كانت تعبر في البداية عن ذلك الانتاج الفكري الذي انتجه ماركس في حياته بما في ذلك المؤلفات المشتركة بينه وبين رفيق دربه فريدريك انجلز، الا أن هذا المصطلح قد توسع فيما بعد وأصبح يشمل جميع الابحاث والدراسات التي تطرقت من قريب او من بعيد لفكر كارل ماركس وانجلز، وايضا تلك التي استندت على اطروحاتهم ومفاهيمهم.

مثل ظهور الفلسفة الماركسية في القرن التاسع عشر ميلادي ثورة وقفزة نوعية في تاريخ الدراسات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وهذا راجع الى اختلافها عن كثير من الفلسفات التي سبقتها من حيث الطرح والمنهج، فهي تنفرد عنها من خلال ربطها بين النظرية والممارسة أي توحيدها بين الجانبين النظري والعملي، اضافة الى ذلك برزت الماركسية بعد ان اكتملت التغيرات البرجوازية المناهضة للنظام الاقطاعي وانتشارها في معظم العواصم الاوروبية الكبرى كفرنسا وانجلترا، فقد أتت كرد على الظلم والاستغلال الذي كانت تتعرض اليه الطبقة البلوريتارية من قبل الطبقة الرأسمالية، فأصبحت بذلك تمثل التعبير الواعي عن مصالح الطبقة العاملة وبرنامجها النضالي في سبيل التحرر من الظلم والاضطهاد، وفي سبيل تحقيق هذا الهدف تعتمد الماركسية على مجموع ادوات ووسائل واليات تعطيها المرونة والقدرة على التحليل والتفسير والتغيير سواء تعلق الامر بالظواهر الاجتماعية أو الطبيعية.

التشكيلة الاجتماعية الاقتصادية:

يرى كارل ماركس ان المجتمعات الاقتصادية الانسانية قد مرت في تطورها التاريخي بخمس تشكيلات اجتماعية تتمثل في: المرحلة البدائية، المرحلة العبودية، المرحلة الاقطاعية، المرحلة الرأسمالية، المرحلة الاشتراكية.

01/ المرحلة البدائية: تعد هذه المرحلة الشكل الاقل تطورا في تاريخ التنظيم البشري، فيها اعتمد الانسان لضمان بقائه على ادوات بدائية مصنوعة من الاحجار وعظام الحيوانات والخشب ، وبخصوص مأكله ومشربه ومسكنه فقد اعتمد على ما تجود به الطبيعة من ثمار واوراق الاشجار وكهوف الجبال، لكن مع مرور الزمن تغير حاله تدريجيا وبدأ في صنع ادوات أكثر تطورا مثل : القوس والقوارب والفأس والمحراث...الخ، فاتجه الى زراعة المحاصيل وتربية الحيوانات والرعي بدل من الاعتماد على خيرات الطبيعة فقط، كما مثل تعلمه لكيفية اشعال النار حدثا هاما ساهم في تحسين مستوى معيشته.

02/ مرحلة العبودية: عرفت هذه المرحلة تطورا كبيرا مقارنة مع سابقتها، من حيث وسائل الانتاج وكذلك القوى المنتجة، فكان بناء السدود والطواحين، واستخراج المعادن وتحويلها الات للاستعمال سواء في الزراعة او الحرف المختلفة، كما عرفت هذه المرحلة ظهور المدن وانتشار التجارة، كما كانت علاقات الانتاج السائدة في هذه الفترة تتسم بالظلم والاستعباد نتيجة لملكية العائلات الغنية لوسائل الانتاج وأيضا للعاملين أنفسهم، فقد كانوا عبارة عن عبيد لدى هذه العائلات، مما أدى الى بروز طبقتين في المجتمع: طبقة الاسياد وطبقة العبيد.

03/ المرحلة الاقطاعية: ان تاريخ المجتمعات الانسانية حسب النظرية الماركسية في صيرورة وتغير واستمرار، وهذا يعني ان قوى الانتاج في المجتمع في تطور ايضا، فقد عرفت هذه المرحلة اكتشاف واختراع وسائل جديدة مثل اكتشاف الورق وظهور الطباعة وصناعة البارود، كما عرفت الحرف والزراعة ايضا تطورا ملحوظا نتيجة لاختراع ادوات والات جديدة، اضافة الى ذلك علاقات وقوى الانتاج في هذه المرحلة لاتختلف كثيرا عن سابقتها، نظرا لاستمرارية ملكية المالك لوسائل الانتاج والقوى المنتجة (العمال) التي يتحتم عليها القيام بكل الخدمات التي يمليها عليهم المالك ورب العمل، مما يعني استمرار الظلم والخضوع والاستغلال كطابع للعلاقات السائدة بين الطبقات، لكن مع فارق بسيط يتمثل في ان العامل يدافع عن المصالح الاقتصادية والاجتماعية للاقطاعيين وليس لملاك العبيد او الاسياد.

04/ المرحلة الرأسمالية: ان تطور القوى المنتجة ادى الى سقوط الاقطاعية وحلول محلها النظام الرأسمالي الذي عرف ازدهار وتحضر المدن وانشاء المصانع وتحرير العمال، فالعامل في النظام الرأسمالي حر مقارنة بالنظام الاقطاعي، فرغم أنه لايملك الارض او وسائل الانتاج الا انه ليس مملوكا لدى احد، ومع ذلك فحاله لايختلف كثيرا مع العبد لانه يضطر مثل العبد الى بيع جهده للراسمالي من خلال العمل في مصانعه، وهذا بدوره لايخلو من مظاهر الظلم والاستغلال.

ان التطور الذي عرفته قوى الانتاج في النظام الراسمالي لم يصحبه تطور مماثل على مستوى علاقات الانتاج، ويكشف ذلك تناقض اسلوب الانتاج الرأسمالي في طابعه الاجتماعي لعملية الانتاج وبين شكل التملك الرأسمالي الخاص، بمعنى ان ملايين العمال الذين يعملون في اطار النظام الرأسمالي لا تذهب اليهم منتجاتهم، وحيث تستحوذ عليها فئة قليلة من الرأسماليين، وهذا مايعتبره كارل ماركس كنوع من الاستغراب بين المنتج وسلعته التي انتجها، حيث انه اولا لا يستفيد منها، وثانيا ان وجدها لا يكفيه اجره لشرائها، وهذا ماسيؤدي في الاخير الى نشوب صراع وتصادم بين الطبقتين، البرجوازية والبروليتارية، الامر الذي سوف يؤدي الى نقل المجتمع الى مرحلة الاشتراكية.

05/مرحلة الاشتراكية : تأتي هذه المرحلة نتيجة لوجود طبقة عاملة ذات وعي اجتماعي واقتصادي تقوم بالثورة على كل اشكال القهر والاستغلال الاجتماعي ، واحلال محله نظام اجتماعي واقتصادي مبني على اسس العدل والمساواة بين الناس، بحيث تتميز فيه علاقات الانتاج بالملكية الجماعية لوسائل الانتاج، وانتفاء الطبقية على عكس ماكان سائدا في المراحل السابقة.

ان الثورة على النظام الرأسمالي ستؤدي الى تنصيب البروليتارية كقوى حاكمة تعمل على هدم كل علاقات الانتاج القديمة، مما يؤدي الى الانتقال بالنظام الاقتصادي والاجتماعي من (دعه يعمل دعه يمر) الى (نظام الرقابة الحكومية)، ثم الى نظام الخدمات الاجتماعية، ثم الى نظام ملكية الدولة، بعد زوال الملكية الفردية او الخاصة، بهذا ينشأ النظام الاشتراكي، يجب الاشارة هنا الى ان الدولة في المرحلة الاشتراكية ليست دائمة، وانما هي مرحلة انتقالية، تعمل على تنظيم وضبط الامور تمهيدا للمرحلة الشيوعية التي تعتبر الهدف الاسمى لكل الماركسيين، ففيها تنعدم الطبقية والملكية وتسود العدالة الاجتماعية.

الصراع الطبقي: تبنى كل من كارل ماركس وفريدريك انجلز في نظريتهما المادية للمنهج الذي اشتهر به هيجل قبلهما، الا ان تبنيهما لهذا المنهج لم يكن مطابقا لما وضعه هيجل، بل اخذوا منه نواته الجدلية وعدلا فيه وحولا موضوعه من جدل الافكار والتصورات العقلية الى جدل الطبيعة والمجتمع، أي التحول من صراع الافكار الى صراع الطبقات الاجتماعية، هذا الاخير هو صراع بين من يملكون ومن لا يملكون، بين من يملكون

وسائل الانتاج والثروة وبين من لايملكون الا جهدهم العضلي، ان هذا الصراع القديم القائم في المجتمعات قديم قدم المجتمع ذاته، فاذا تتبعنا ظاهرة الصراع قديما نجدها موجودة في شتى المراحل التاريخية (ماعدا المرحلة البدائية) التي مر بها المجتمع في تطوره، فقد كان الصراع موجود بين السيد والعبد في المجتمع العبودي، وبين الاقطاعي والفلاح في المجتمع الاقطاعي ، وبين البرجوازي والبلوريتاري في المجتمع الراسمالي، الا ان هذا الصراع سينتهي ويختفي عند تحقق وجود المجتمع الشيوعي الذي يسود فيه العدل والمساواة وتزول فيه الطبقات والاستغلال.

يعترف ماركس بحقيقة انه لم يكتشف وجود الطبقات ولا الصراع الطبقي، كما انه يقر بأسبقية بعض المفكرين البرجوازيين الذين اشاروا لهذه المفاهيم في تطرقهم لبعض القضايا الاجتماعية ، ورغم ذلك فقد اضاف كارل ماركس بعض اللمحات الجديدة في هذا الموضوع ويقول: "اما الجديد الذي اتيت به فهو : 01/ اقامة البرهان على ان وجود الطبقات لا يرتبط الا بمراحل تاريخية محددة من تطور الانتاج، 02/ على ان صراع الطبقات يفضي بالضرورة الى دكتاتورية البروليتارية 03/ على ان هذه الدكتاتورية لا تمثل هي نفسها سوى انتقال نحو الغاء الطبقات كافة ونحو مجتمع بلا طبقات".

يرى ماركس ان المجتمع الحديث يتألف من طبقتين رئيسيتين هما: طبقتي البرجوازية والبلوريتارية، العلاقة بينهما علاقة تصادم وصراع واستغلال، البرجوازية تحاول الحفاظ على العلاقات السائدة في المجتمع من منطلق انها تخدم مصالحها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، والبلوريتارية تعمل على احداث الثورة التي تؤدي الى تغيير الموازين الاجتماعية والاقتصادية والتي من شأنها تحسين ظروف معيشة العمال الكادحين والطبقة الفقيرة بصفة عامة.